

عرض المجتتب



المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الأثرية: النشأة والتطور The City in the Arab World in the Light of Archaeological Discoveries: Evolution and Development

المحررون: أ. د. عبد الرحمن الطيب الانصاري

د. خليل بن ابراهيم المعقل

د. عبد الله بن محمد الشارخ

الناشر: مؤسسة السديري الخيرية

سنة النشر: ١٤٢٩ هـ

مقاس الكتاب: ٢١ × ٢٩ سم.

عدد الصفحات: القسم العربي (٣٠٤)، القسم الانجليزي (١٣٠).

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠٢٨-١-٩

عرض: أ. د. هاني فيصل هياجنه.

وما حققته من إنجازات في خدمة الثقافة العربية والتي تكللت مؤخراً بعقد هذه الندوة التي كان هذا الكتاب قيد المراجعة نتاجاً لها، وقد اتسع إطار هذه الندوة من حيث الموضوعات ليتناول المدينة العربية وإرهاصات نشأتها الأولى وتطورها وتخطيطها وتحولاتها الحضارية، منذ العصور الحجرية مروراً بمراحل ممارسة الزراعة واستئناس الحيوانات ومن ثم ظهور القرى المبكرة في العصر الحجري الحديث؛ فكان ذلك مهاداً أدى إلى ظهور المدينة، وقد زودنا الباحثون بالأدلة الدامغة على هذه التطورات والتحولات مما اكتشفته معاولهم بعد سبر باطن الأرض في عدد من المدن العائدة إلى عصور ما قبل الإسلام.

المشاركة الأولى بحسب ترتيب الأبحاث في هذا الكتاب كانت لعبد الرزاق بن راشد المعمرى بعنوان «موروث العصور الحجرية ودوره في تشكيل قرى ومدن حضارة جنوبي الجزيرة العربية المبكرة» (ص ٧-٣٤)، ودرس فيها مجموعة جديدة من الأدوات الحجرية القزمية الهندسية الشكل من

ضم هذا الكتاب بين دفتيه حصداً لندوة عُقدت في رحاب دار الجوف للعلوم، بمدينة سكاكا، حاضرة الجوف بالملكة العربية السعودية، وذلك في الفترة الواقعة ما بين ٥-٣ ذي القعدة ١٤٢٦ هـ (٥-٧/١٢/٢٠٠٥)، وصدر بحلة بهية عن مؤسسة السديري الخيرية، وحوى خمسة عشرة مساهمة باللغة العربية وثمانية أخرى باللغة الإنجليزية، وكانت نتاجاً علمياً لباحثين عرب وأجانب كان أغلبهم من المعروفين في دراساتهم الثرية والمعمقة في آثار بلاد الشام والجزيرة العربية، فأما الجوف من أصقاع شتى (السعودية والأردن وسوريا والمانيا وفرنسا ولبنان والسودان وبريطانيا والجزائر وبلجيكا) للمشاركة.

استُهلَّ الكتاب بمقدمة رصينة (٥-٧) دبجتها يد واحد من شيوخ علم الآثار والكتابات الأثرية القديمة في الوطن العربي، وواضع حجر الأساس لعلم الآثار في المملكة العربية السعودية، ألا وهو الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري، فاحتوت لمحة عن مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية،

أو المربع متعدد الغرف ذي الوظائف المتنوعة وتوصل الباحث إلى أن ملامح الإنجاز المعماري في بلاد الشام، بدأت بالظهور في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم، من خلال العثور على أعداد قليلة من أماكن السكن المؤقتة، على الرغم من كونها بدائية، ولكنها وفرت بداية تصورات محددة يمكننا أن نتلمس من خلالها التقدم الملحوظ من قبل الإنسان لتطويع الظروف الصعبة.

أما بحث سلطان المحيسن في بحثه «القرى الزراعية في المشرق العربي القديم» (٥١-٦٤) فسلط فيها الضوء على نمط حياة مجتمعات ما قبل التاريخ في المنطقة المذكورة، بالانتقال من حياة الصيد والالتقاط إلى الاستقرار وممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات بدءاً من الألف الثامن قبل الميلاد، ولبن ما حققته المجتمعات الزراعية من إنجازات في مجال العمارة والفنون وإنتاج الطعام وغيرها من الوسائل التقنية، إذ كان ذلك كله مهداً لنشوء المدن الأولى، واخذ مثالا على ذلك مواقع مثل المريط وجرف الأحمر وحبويه كبيره، وأريحا وبسطة وعين غزال وجبيل كادلة على هذا التحول.

أما مقالة عباس سيد علي أحمد علي «على حافة المدينة: ظهور واضمحلال القرى الزراعية في سهل البطانة (شرق السودان)» (١٠-١٢ هكتاراً، بتراكم طبقي يصل إلى مترين، وبين الباحث أن ساكني هذه المستوطنات طوروا صناعات جديدة من أدوات للزينة والمطارق والفؤوس المصقولة، فكانت تمثل هذه المستوطنات بحسب الباحث تطوراً فاق نظيراتها في مرحلة ما قبل الأسرات (البداري ونقاوة) في شمالي وادي النيل، وما لبثت هذه المستوطنات حتى تطورت إلى مدن ومراكز حضارية، قافزة بذلك إلى المدينة، كما حدث في

مواقع مختلفة في جنوبي الجزيرة العربية؛ إذ كان هذا النوع مصدراً مهماً للمعلومات حول الانتقال إلى العصر الحديدي وظهور المستوطنات الزراعية على أطراف رملة السبعين، ومن ثم بداية تشكل حضارة جنوب الجزيرة العربية، وعرض فيها إلى تجربة قام بها بتثبيت الأدوات القزمية الهندسية الشكل على حامل مصنوع من الخشب يمثل المنجل إضافة إلى نماذج أخرى من الأدوات الحجرية المختلفة عن الأدوات القزمية، إلا أنها قد تكون ذات صلة بظهور المقدمات الزراعية على أطراف رملة السبعين. وتحقيقاً للأهداف المذكورة فقد حاول الباحث من خلال هذه الأدوات معرفة طبيعتها في المواقع المدنية ومدى انتشارها على أطراف رملة السبعين ودورها في تشكيل القرى الزراعية المبكرة، وبيان وحدة أصول هذه المستوطنات من وادي الجوية ووادي حزموت وطفار العمانية والإمارات العربية المتحدة ومأرب، وتطرق إلى أن بوادر الانتقال من الصيد إلى الزراعة ظهرت في نهاية العصر الحجري الحديث أو في فترة تلت مباشرة في هذه الواحات، وظهر من دراسة الفؤوس الحجرية الخمسة التي درسها ومقارنتها بالأدوات القزمية عدم وجود صلة بين هذين النمطين، وطرح سؤالاً عن عدم وجود هذه الفؤوس في المستوطنات التي وجدت فيها الأدوات القزمية؟ أو بعبارة أخرى، هل وجدت صلة مشتركة بين صانعي النمطين؟ وهل يعني أن أصحاب الأدوات القزمية الهندسية الشكل كانوا دخلاءً على رملة السبعين، أهم دخلاءً جدد على تقاليد العصور الحجرية المحلية في الجزيرة العربية؟ وهل ظهرت هذه الأدوات فجأة وبصورة جاهزة في بداية العصر الحديدي؟

المقالة الثانية جاءت بعنوان «تخطيط القرى الزراعية وعمارتها في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في بلاد الشام» لخالد أبو غنيم (٣٥-٥٠)، تناول فيها بداية نشوء القرية في بلاد الشام في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري من مرحلة التجمعات السكانية العشوائية وانتقالها إلى القرية، وخلص الباحث إلى وجود تطور كبير في الفكر المعماري عند إنسان العصر الحجري الحديث، مع بداية ممارسته الزراعة، من خلال التصميمات الداخلية للمساكن الدائرية، ومن ثم الانتقال إلى المخطط المستطيل

مصر.

أما بحث كل من معاوية ابراهيم وخالد دغلس «ملامح المدينة في العصر البرونزي المبكر في شمال الأردن، خربة الزيرقون حالة دراسية» (٧٧-٩٦) فتناولوا ملامح المدينة وعناصرها في العصر البرونزي المبكر بالإعتماد على أدلة موقع الزيرقون في شمالي الأردن، وهو من المواقع القليلة التي أشارت موجوداته إلى مدى التشابه والاختلاف بين العناصر الثقافية في الألف الثالث قبل الميلاد، فبدأ الباحثان بتاريخ البحث الثري، وتحديثاً عن العماثر في المواقع وتحصيناته الدفاعية، ومبانيه الدينية والإدارية والسكنية، ونظامه المائي والفخار المكتشف فيه، والتماثيل الطينية، والأختام، والبقايا النباتية والحيوانية، ووصلاً إلى نتيجة مفادها أن بناء المدينة في العصر البرونزي الثاني (EBII) في شمالي الأردن كان نتاجاً لتطور ثقافي مميز شهدته المنطقة خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر (EBI)، حيث ظهرت فيها أولى محاولات الإنسان للانتقال من حياة القرية إلى المدينة، ووصلاً إلى أن فكرة إنشاء المدينة المحصنة في العصر البرونزي المبكر الثاني لم تكن فريدة، إذ أن إنسان الألف الثالث قبل الميلاد كان لديه فكرة مسبقة عن هذا النظام الجديد من المستوطنات، في حين أنه من الممكن أن ظاهرة إنشاء المدن لم تكن شائعة لدى الأغلبية في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وأوجز الباحثان ملامح المدينة ومميزاتها الماثلة في ازدحامها السكاني، كما دلت عليه المسوحات الجيوفيزيائية، إذ قدر سكانها بـ ٢٣٠٠، وبنظامها الدفاعي الدال على النظام المدني للمجتمع، علاوة على النظام الطبقي المميز للمدينة، فبدأ ذلك واضحاً من خلال التخطيط المسبق للمدينة، ففصل فيه بين طبقات المجتمع، فكانت المباني السكنية في المدينة السفلى في حين كانت المباني الإدارية في الجزء العلوي من المدينة، إضافة إلى التطور الاقتصادي المائل في طباعة الأختام الاسطوانية، ما يدل على نظام تبادل تجاري في الألف الثالث قبل الميلاد. وكان العامل الديني في رأي الباحثين مهماً للتطور نحو المدينة؛ فكان هناك معبدٌ بأعلى المدينة مسور بجدار من جميع جهاته، وعرّج الباحثان على نهاية المدينة التي أقرا بأنها كانت سلمية بعد أن هُجرت

على ما يبدو واغلقت أبوابها درءاً لهجوم كان متوقعاً عليها، وربما يفسر ذلك عدم تعرض المدينة للدمار.

ثم أُتحَفْنَا بمساهمة من عبد الرحمن الأنصاري وسالم أحمد طيران بعنوان «قرية الفاو مدينة المعابد» (٩٧-١٠٦)، قدما فيها عن قرية الفاو المعروفة بنصوص المسند بـ (ذات كاهل)، وأهميتها كمنطقة التقاء للقوافل التجارية التي كانت تجوب الجزيرة العربية، ثم بين الباحثان كيف كانت هذه المدينة يتمتع فيها زائروها وساكنوها بتسامح ديني بان من المعابد المتعددة الخاصة بألهة عربية مختلفة، مثل معبد ذات كهل، الذي تحدث عنه نقش عثر عليه في بئر بالسوق يذكر إنشاء بقية طلو، ومثله المعبودة اللات، التي تُشير النقوش إلى وجود مذقنة لها في قرية، ما يدل على عبادتها وتقديسها. وتناولوا أيضاً النصوص المقدسة التي تذكر معبودات أخرى مثل الأحور والمقه وهوبس وعثر وذات حميم وذات بعدن وما اتصل بها من معابد خُصِّتْ بعض القبائل التي عرفت في مناطق غير قرية الفاو كقبيلة مرن (ذمرن) المعروفة في قرية منذ المرحلة الأولى وهي من القبائل التي عاشت في دون (العلا)، وعرجا على نص دُون على الواجهة الشمالية الداخلية لمعبد عثر- ود وثق أصحابه تقديم مجموعة من الأشخاص من بني مدام آل تيم مناة مذقنة من الحجر للمعبود عثر ذو قبض وآلهة معين إضافة إلى نقوش أخرى توثق لهذا المعبود، ثم تطرق الباحثان بعدها إلى العلاقات القائمة بين قرية الفاو وبعض ممالك الجزيرة العربية القديمة كالأنباط واللحيانيين وغزة، والأخيرة مذكورة في نص يذكر إقامة مذبح لمعبود غزة مدنا (مرناس)، الذي يظهر رمزه (حرف الميم) على عملات غزة في العصر البيزنطي، وقد بين الباحثان بالدليل والحجة مدى أهمية قرية الفاو لحواضر الجزيرة العربية من شمالها وجنوبها، وما لعبته من دور بان في علاقاتها التجارية ومظاهرها الدينية وقيمتها الثقافية.

وفي مقالة مطولة لمحمد المرقطن «العاصمة السبئية مأرب: دراسة في تأريخها وبنيتها الإدارية والاجتماعية في ضوء النقوش السبئية» (١٠٧-١٤٤)، استقرأ فيها كاتبها تاريخ مدينة مأرب بإبراز البنية الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، فعرض لتاريخ البحث الأثري فيها والذي بدأ

الميلادي في ممارسة الدور الديني والثقافي، وبعدها بدأ الأعراب بزحفهم نحوها، فضعفت الزراعة فيها، وكان ذلك ايذاناً باختفائها من الساحة.

عرض الباحث لمخطط المدينة وسورها المنيع ومراحل بنائه، وبواباته، ومركزها الذي اشتمله السور، والمباني التي وقعت خارجه، وأوضح مفهوم كلمة هجر ر/ ي ب ومدلولاتها اللغوية والاجتماعية، وأنواع الهجر، كالملكية منها، ومراكز الممالك الصغيرة، الهجر مراكز الشعب، والقلعة منها أو العر، والهجر المدينة المقدسة، والهجر السوق والهجر القرية، ووصل إلى معنى «هجر» تعني «مستقر أو مكان الاستقرار الدائم، وأن مدينة مأرب «مدينة ملكية ودينية مقدسة».

وتحدث الباحث عن محيط مأرب الديني والمشار الية في النقوش بكلمة أ ب ض ع، وما تشير إليه من مزارع للنخيل فيها، أما سد مأرب فكان له نصيب جيد من مقالة المرقطن، إذ عاد بنشأته إلى نهاية الألف الثالث ق.م. وطوره السبئيون بعد مجيئهم إلى المنطقة، فأصبح العمود الفقري لاقتصاد اليمن القديم، وتحدث عن أعراب مأرب على أطراف المدينة والبنية التحتية ومؤسساتها العامة، وخاصة القصور والمعابد وسكانها ومواطنيها، ح ور، الذين وردوا في النقوش بتسميات مختلفة مثل أ ب ع ل، ح ور، أ دم، ومؤسساتها الاقتصادية والاجتماعية وموظفيها ومؤسساتها التشريعية، والحياة اليومية فيها كأعمال الناس ووظائفهم.

وفي بحث قدمه زيدون المحيسن وفرانسوا فلنوف بعنوان «المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الأثرية حالة موقع الذريح»، (١٤٥-١٥٦)، تحدثا فيه عن الموقع لكونه يقع على درب القوافل بين البترا جنوباً ودمشق شمالاً، حيث أمارط الموقع اللثام عن جوانب مهمة في حياة الأنباط خارج العاصمة النبطية البتراء التي لا تزال صورتها غائمة، إذ كانت الذريح متميزة لكونها لا تقتصر على الأبنية ذات الصبغة الدينية، بل تجاوزت ذلك إلى منشآت سكنية وصناعية، كان من شأنها الإجابة على أسئلة تتعلق بحياة الأنباط الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وقد كشفت الحفريات عن تنوع في الموقع خلال فترة الاستيطان النبطي الروماني.

في أواسط القرن التاسع عشر بعد الرحلات الاستكشافية الأوروبية، والتي تلتها دراسات لنقوش مأرب التي اختلفت مضامينها؛ كالمعمارية والنذرية والإدارية والتتويجية (للحكام) والقانونية والدينية، وتلك التي تتحدث عن الحياة اليومية في اليمن القديم، والمكتوبة بالخط الشعبي (الزبور)، وعرض بعدها لجهود الألمان مثل يورغن شميدت الذي درس المنشآت المائية، وبداية المعهد الألماني للأثار مرحلة تنقيبات جديدة عام ١٩٩٧ في مأرب، التي زودتنا بمعلومات وفيرة عن عادات الدفن عند السبئيين وخاصة في مقبرة معبد أوام؛ ثم عرض الباحث لأهم المحطات التاريخية لمأرب منذ عصور ما قبل التاريخ، إذ بينت فحوص كربون ١٤ أن بعض اللقى من جنوب الواحة الجنوبية تعود إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وأن السد ذاته قد يعود بتاريخ نشأته إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وتحدث الكاتب أيضاً عن بدايات الدولة السبئية ونقش المكرب - يثع أمر بين بن يكر ب ملك (نحو ٧١٧ ق.م) وفتوحاته وإنجازاته في تأسيس الدولة السبئية، وقد بلغت مأرب أوج ازدهارها في القرن الخامس ق.م. وما قبله بقرون، إذ بدأت بالتوسع فسيطرت على تهامة في القرن السابع أو الثامن ق.م. ومن ثم إلى الحبشة إذ أسس السبئيون هناك مملكة (دعمت)، ومعبد آلإلقه، وفي الفترة السبئية المتوسطة من القرن العاشر ق.م. حتى نهاية القرن الثالث الميلادي، حكمت سبأ أسرة سبئية تقليدية وأسر أخرى جاءت من الهضبة اليمنية، وفي القرن الأول الميلادي ظهرت أسر شكلت جزءاً من تحالف «ولدعم» الذي كان يضم القتبانيين أيضاً فظهرت قوة يعتد بها في القرن الثاني الميلادي، ودشنت قصرها ذي ريدان في عاصمتها ظفار بالقرب من «يريم»، وبدأت جذوة الصراع تلهب بين ملوك سبأ وحميز فادعي الطرفان اللقب «ملك سبأ وذي ريدان» وبقي الصراع محتدماً حتى سنة ٢٨٠ حيث سيطر الملك الحميري ياسريه نعم وابنه شمر يهرعش على مأرب واخضع السلطة السبئية لسلطان حمير وبعد حين ضم شمر يهرعش مملكة حضرموت وصد هجمات الأحباش، وبسواد ظفار بدأت مأرب تفقد دورها التاريخي وأهميتها، ولكنها استثمرت لبعض الوقت، حتى أواسط القرن الرابع

فيه.

وحول آثار لبنان عرض الباحث حسن رامز بدوي «مدينة عنجر الأموية (لبنان) بين إشكالية الموروث البيزنطي وحاجات المدينة العربية الإسلامية» (١٨١-٢٠٢)، للتتظيم المدني لمدينة عنجر الأموية وخصائصها، ومسألة اعتماد المسلمين العرب على نماذج المدن الحربية لدى الرومان والبيزنطيين، ويتطرق البحث إلى المنشآت المعمارية التي أضافها العرب المسلمون كالمسجد، وقام بتفسير أهمية اختيار الموقع، وخاصة أنه يشكل نقطة وصل رئيسه بين دمشق والبحر المتوسط عبر مدن الساحل اللبناني وجنوباً باتجاه فلسطين، ودرس الباحث أسوار المدينة وشوارعها وساحاتها وأبنيتها الإدارية والدينية والعامة وأبنيتها الخاصة والطرز الفنية والمعمارية.

وعن منطقة حائل فقد استعرض فهد صالح الحواس بمقالة بعنوان «الاكتشافات الأثرية الحديثة في مدينة فيد التاريخية بمنطقة حائل» (ص. ٢٠٣-٢٢٢) عن أهم الآثار الإسلامية المبكرة في مدينة فيد الواقعة جنوب شرق حائل بنحو ١٠ كم، والواقعة في منتصف طريق الحج الواصل بين الكوفة ومكة المكرمة، معتمداً بذلك على المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية والكشوفات الأثرية الحديثة، وبين أهميتها في العصور الإسلامية المبكرة، ودرس أهم المرافق المشتملة عليها التي اكتشفت بعد إجراء المسوحات والتتقيقات فيها، فمنها المقابر والمنشآت والآبار والبرك والقنوات المائية والنقوش الإسلامية والعربية الشمالية القديمة المبكرة، والمدينة السكنية وفخارها المزجج وغير المزجج والخزف ذو الطلاء القصديري، وخلص الباحث إلى نتائج جمة منها أن هذه المدينة انتهت بعد سقوط الدولة العباسية وتغير درب الحج من فيد إلى حائل.

ومن المغرب العربي بين الباحث عبد العزيز محمود لعرج في بحثه «دور المدن الساحلية في الحركة التجارية لدولتين الحماوية والزيانية بالمغرب الأوسط: بجاية وهنين انموذجان» (٢٢٣-٢٥٠) كيف تحولت التبادلات التجارية عن المسالك البرية لتسلك طرقاً بحرية أدت إلى ازدهار الحوض الغربي للبحر المتوسط بمدنه واحتلالها الصدارة في الحركة الاقتصادية والتجارية، وأخذ الباحث

ولخص ضيف الله الطلحي في بحثه «حفريات الحجر: النقش اللاتيني ودلالة الإكتشاف» (ص ١٥٧-١٦٦) ما قامت به وكالة الآثار والمتاحف من تنقيبات في المنطقة السكنية بالحجر، وما كشفته من لُقى أثرية أثبتت أن الموقع لم يكن مجرد محطة قوافل، بل كان مأهولاً بالسكان، حيث بين الموسم الخامس نقشاً لاتينياً يُظهر الجهود التي بذلها الأهالي في الحجر لترميم أحد المباني العامة، وقد أُرُخ إلى فترة متأخرة من القرن الثاني الميلادي.

وفي بحث بعنوان «نقشان عسكريان لاتينيان جديدان مكتشفان في جزائر فراسان: روما والاسكندر والبترا وتجارة الشرق في القرن الثاني بعد الميلاد» (١٦٧-١٨٠) لـ: فرانسوا فلنوف، وهو بحث قدم بالفرنسية وعُربه مولاي جانيف، ألفينا تحليلاً تاريخياً لنقشين لاتينيين من جزائر فراسان، أُرُخ الأول إلى سنة ١٤٤م وتناول أثراً كُرس للامبراطور من الحامية التي تكونت من جنود من الفيلق المقيم باستمرار في مصر، فكان هذا النقش مهماً إذ اطلعنا على الحملة العسكرية الرومانية والاستيطان جنوبي البحر الأحمر في سنة ١٤٤م، أما النقش الثاني فهو منقوص وحمل نقشاً لاتينياً آخر من الجزيرة الرئيسية من أرخبيل فراسان، وعثر عليه ضمن بقايا قصر قرب بئر قديمة، ويبدو أن النقش كان مؤلفاً من أربعة أسطر، وكان تكريساً قامت به حامية عسكرية تابعة للفيلق السادس فرأتا في عهد حاكم روماني غير معروف من النقش، إذ يبدو أن المعسكر الروماني في فراسان كان مكوناً من حاميتين تتتميآن إلى فيلقين مختلفين، ويبدو أن الحاكم الروماني لم يكن ذلك الذي في مصر بل حاكم الولاية العربية الرومانية، إذ أن الفيلق السادس كان موجوداً في الولاية العربية، ولكن لفترة قصيرة جداً، إذ كان موجوداً في سوريا حتى سنة ١١٠م أو بعدها بقليل، ثم تحرك باتجاه بصرى العربية ليرابط بعدها في فلسطين، وأمكن بناءً على ذلك تاريخ النقش سنة ١٢٠م، وبين فلنوف أن الوجود العسكري الروماني في فراسان والسيطرة على جنوبي البحر الأحمر كان يسبق منتصف القرن الثاني الميلادي، وربما تزامن مع الاحتلال الروماني للمملكة النبطية ولعل السبب الرئيس في هذه السطيرة على البحر الأحمر هو حماية التجارة الرومانية

للإنسان بشكل دائم، وإعتماد مجتمعات الرعي في جنوبي عُمان على الهجرات الموسمية إلى مناطق بعينها وفي وقت محدد، وبحث استراتيجيات الزراعة واعتمادها على الواحات سواءً كانت طبيعية أو معدلة، كسيطرة الإنسان على الماء وجرة وإدارته، وهو ما نتج عنه نظام الأفلاج في عُمان، ونقل التربة الخصبة إلى المواقع التي وصل إليها الماء وبخاصة إلى مجاري أطراف الوديان، ما أدى إلى تحولها إلى مدرجات صناعية على جانبي مجرى الوادي؛ فأدت الطريقة الأخيرة المعروفة باسم «الضفر»، إلى زيادة الإنتاج، وخاصة النخيل، ومن ثم زيادة المخزون، ما نتج عنه تفكير الإنسان بتطوير نظم دفاعية عن هذه المواقع الغنية والمهمة لديناميكية الحياة، وقد أسفر ذلك كله - بحسب الماحي - إلى رسم صورة للاستقرار الإنساني وتكوين المجتمع المدني، ومن هذه الواحات ما يعود إلى العصر البرونزي، مثل موقع بوشر (٢٠٠٠ ق.م) والعصر الحديدي، كالموقع المذكور وموقع محلياء في وادي عندام (٣٥٠٠-١٠٠٠ ق.م). ومما تناوله الماحي أيضاً ما اختص بالتعدين من استراتيجيات، إذ اشتهرت عُمان بإنتاج النحاس، وكان لا بد لذلك من إدارة حصيفة لعملية الإنتاج والعاملين فيه، وكذلك استراتيجيات التبادل والتجارة. ولم يكتف الباحث عند هذا الحد بل تحدث عن مفهوم المدينة، وكيف أن الواحات لا تتحول إلى مدن، خاصة أن بعضها لا يفي بمتطلبات طفرة المدينة، إذ يحتاج ذلك إلى تفاعل مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية التي تسهم وتعمل على نمو المجتمع المدني وازدهار أنشطته، وتطويرة في سياق مدني إداري واقتصادي. وتطرق إلى مدينة بات في ولاية عبري في الجزء الشمالي من سلطنة عُمان والمقابر التي أكتشفت فيها العائدة إلى الألف الرابع ق.م، وخلص الباحث في ورقته القيمة إلى تصنيف الأنماط المجتمعية التي سادت في عُمان، كالمجتمعات البدوية على السواحل واعتمادها على المصادر البحرية، والمجتمعات المدنية على السواحل أيضاً واستقرارها الدائم، والمجتمعات المدنية على السواحل أيضاً ذات الاستقرار الدائم، ومجتمعات سكنت الواحات واعتمدت على التجارة البينية، ومجتمعات رعوية بدوية سكنت الأراضي السهلية واعتمدت على تربية الحيوان،

مثلاً مدينتا بجاية الحمادية (٥٤٦-٣٨٧هـ) وهنين الزبانية (٩٦٤-٦٣٣هـ) لكونهما بوابتان رئيسيتان للتجارة الدولية مع بلدان أوروبا الجنوبية وبلاد المشرق، وبقيت على هذا الحال من الازدهار حتى مجيء الاحتلال الأسباني في الأندلس ومطاردة المسلمين إلى السواحل المغربية، ما أدى إلى توقف نشاط هاتين المدينتين وضعف شأنهما.

ومن السعودية تحدث خالد إسكوبي ببحثه «المدينة المنورة منبع الحضارات: المسوحات الأثرية في المدينة المنورة خلال الأعوام ١٤٢١هـ، ١٤٢٢هـ، ١٤٢٤هـ» (٢٥١-٢٦٢)، مستعرضاً أعمال البحث الأثري الذي قام به فريق علمي من وكالة الآثار والمتاحف، خلال ثلاثة مواسم، وبخاصة في وادي النقي، ووادي مهلل، ووادي مذيبل، شمالي المدينة المنورة، ووادي العقيق المبارك، جنوبي المدينة المنورة، وبين الباحث كيف أن مركز المدينة الرئيسي كان محطاً للقوافل قبل الإسلام، وقوافل الحج الإسلامي بعد الإسلام. إذ تعود الآثار الإسلامية فيها إلى القرون الأولى الثلاثة بعد الإسلام، واستعرض الباحث عدداً من البقايا الأثرية في المناطق المذكورة من منشآت وبقايا قصور وسدود وقنوات ري ونقوش ورسوم صخرية.

وفي مقالة امتازت بإطارها النظري المشفوع بأمثلة واقعية من المحيط العُماني، بين علي التيجاني الماحي في بحثه «الاستقرار والتأقلم في البيئات العمانية الجافة: جدل الدليل الأثري والنموذج التقليدي» (٢٦٣-٢٨٤) جدلية العلاقة ما بين العوامل البيئية وأثرها في الاستقرار؛ إذ يرى أن التباين البيئي واتجاهات التأقلم في عُمان قد رسمت ملامح تكوين المجتمع المدني في الواحات والمدن العمانية قديماً، وذلك بفضل استراتيجيات البقاء، فعرض أولاً للموقع والتباين الجغرافي الذي تتميز به عُمان وأثره في تحديد التوزيع السكاني، والعوامل المؤدية إلى الاستقرار في البيئات العمانية الجافة واستراتيجيات البقاء وتكوين المجتمع المدني، واستراتيجيات اقتصاد الصيد وجمع الثمار ومتطلباته الضرورية كالحركة والتنقل المستمر الذي يتخلله استقرار مؤقت، والتنقل لأجل الحصول على المنتجات الموسمية، وقد تجلى هذا النمط على السواحل العمانية، وتطرق الباحث لاستراتيجيات الرعي، كمرافقة الحيوان

ما يليه لم يشعر سكان تيماء بمسؤولية تجاه التراث القديم للواحة، إذ حطموا التماثيل التذكارية والزخارف المعمارية وخاصة تلك التي تخص مبنياً كبيراً (قد يكون معبداً)، وبعد الفترة فقد دفنت كل البقايا على ما يبدو حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عندما جاء الرحالة والباحثون عن الكنوز والآثاريون وأعادوا اكتشافها.

وفي بحث قدمه كل من Paul-Louis van Berg, Nicolas Cauwe, Christophe Collard, Serge Lemaitre, Marc Vander Lindan بعنوان: (Settlement and Rock Art on the Hemme Plateau (Syria) during the Neo-Assyrian period (Campaigns ٢٠٠١-٢٠٠٤) (٢٧-٣٨) ناقشوا أهمية هضبة الحمة البازليّة الممتدة على سطح يتجاوز ٤٠٠م شمالي الحسكة بسوريا؛ إذ ركز الباحثون أعلاماً، بخلاف ما ركز عليه الآثاريون السوريون في الموقع من مبانٍ طينية، على بحث ما وقع بعيداً عن مركز الموقع وخاصة تلك المعروفة بـ Desert-Kites ودوائر حجرية ومقابر ومستوطنات مختلفة في أحجامها، فكونت أساسات حجرية للمباني المربعة، وبين المسح الأخير أن الهضبة شهدت استيطاناً كثيفاً خلال الحقبة الآشورية.

أما المدن الكنعانية فكانت موضوعاً لمقالة زيدان كفاقي Zeidan Kafafi بعنوان: Charecteristics of the late Bronze Age Canaanite Cities in Palestine (٣٩-٥٦) ركز فيها على ميزات المدينة الكنعانية خلال العصر البرونزي الأخير (١٥٥٠-١٢٠٠ ق.م)، وناقش تسمية كنعان، وآراء الباحثين حول حدود كنعان، واعتمد في بحث الخصائص على حفريات جرت في مواقع فلسطينية مثل تل المتسلم، وتل القدح/ تل وقاص، وخلص إلى أن المدن الكنعانية تميزت بوجود قصر واحد للحاكم ومعبد أو أكثر ومساكن للناس ومصانع ومخازن، واحتوائها على أعراق وجنسيات مختلفة.

وبين جين -باتست هُمبرت وأيمن حسونه (Jean-Bapliste Humbert & Ayman Hassoune) في مقالته: Description of the Remparts of Old Gaza Maiuna and Arthedon Defence, Prestige and Low (٥٧-٧٦) «الأنظمة الدفاعية الثلاثة لموقع بلاخية الواقع في منطقة غزة، إذ

واستنتج أن نشأة المدن كان أساسه الاستقرار الدائم في الواحات الداخلية الساحلية في عُمان.

وننتقل إلى الجزء الإنجليزي من هذا الكتاب، فكانت أول مقالة لـ (Paolo Biagi) بعنوان: The Shell-Middens of the Arabian Sea and Gulf: maritime Connections in the Seventh Millennium B.P. (٧-١٦) تناول فيها كاتبها احتمال وجود صلات بين ساحلي بحر العرب إبان العصر الحجري الحديث، وذلك في ضوء الأكوام الصدفية الحجرية والمتزامنة تاريخياً؛ إذ تتوزع على طول ساحل الجزيرة العمانية في مواقع متشابهة، كتلك الموجودة في مستنقع المانجروف بالقرم عند مسقط، وتواجد ما يشبهها في الكويت، ما يقدم دليلاً على وجود نشاط تجاري عبر المنطقة الجنوبية لشبه الجزيرة العربية حوالي نهاية السابعة غير المعبرة.

ولخص ريكاردو ايخمان (Ricardo Eichmann) في مقالته: Tayma-Oasis and Trad center on frankincense Caravan Route (١٧-٢٦) مجريات الحفريات الأثرية في تيماء في السنوات ما بين ٢٠٠٤-٢٠٠٦م، والتي بينت أن البقايا السكنية تعود إلى الألف الثاني ق.م، وأن الصبغة التي كانت في الأصل بحيرة، استخدمتها القبائل الرعوية منذ مطلع الألف الخامس ق.م، وبعدها، فقد استوطن الواحة مجتمع عاش على جني المحاصيل واستعمل القوس سلاحاً وأنتج خرز العقيق الأحمر، وفي مطلع الألف الثانية وصلها أناس من بلاد الشام أو من شمالي بلاد ما بين النهرين، فأصبحت الواحة من أكبر واحات الجزيرة العربية، ومحطة على طريق تجارة البخور، ويبدو أن الألف الثانية ق.م، شهد علاقة للواحة مع جنوبي بلاد الشام كما يتضح من الفخار ذي الألوان المتعددة، وفي الألف الأولى ق.م، سيطرت القبائل المحلية على تيماء ومدن محطات القوافل التجارية في شمالي الجزيرة العربية، ولكنها تعرضت للسيطرة الآشورية والبابلية بين الحين والآخر، ولكن ذلك لم يدم طويلاً على الأرجح بسبب الظروف البيئية، وبعد إقامة الملك البابلي في تيماء في منتصف القرن السادس ق.م، تبعت ذلك سيطرة عربية شمالية استمرت حتى القرن الأول الميلادي (الحيانيون والأنباط)، وفي القرن الثالث أو

في ورقته The City and East – West trade: The Raya and (١٠٥-١١٤) تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب مبيناً أهمية البحر الأحمر الذي ربط المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط بالثقافات التي عاشت على شواطئها، ويضاف إلى ذلك بحر جنوبي الصين إبان الحقبة الإسلامية، وازدهر التبادل بين الشرق والغرب بعد الغزو المغولي للشرق الأوسط، فانشئت طرق برية وبحرية كطريق الحرير والطريق المائي، ولكن الباحث ركز على الطريق البحري وخاصة الجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء، التي تعد نقطة لالتقاء عالم المحيط الهندي بعالم البحر المتوسط، وقد ناقش ذلك كله من خلال نتائج الحفريات في موقعي رايا والكيلاني، المينائين الرئيسيين في الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة سيناء.

وقد شُفع الجزآن العربي والإنجليزي من هذا الكتاب القيم بمسرد يضم كشافاً للأسماء والأماكن رتبت أبجدياً. ولا يسعني في نهاية عرضي لهذا الكتاب إلا أن أقدر للباحثين جهدهم المبذول في التقصي والاستقراء للمواد الأثرية والمخطوطة والمنشورة، فقد اتحفنا هؤلاء بمرجع غير مسبوق في المكتبة العربية، وجاء الكتاب مؤلفاً موثقاً وضُع في ثوب علمي، قلماً تجد له مثيلاً في عالمنا العربي، ويرجع الفضل في ذلك كله إلى الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الانصاري وفريقه في إخراج هذا الكتاب على هذا النحو.

احيطت بحاجز بحري من الطوب والطين لحماية مستوطنة العصر الحديدي، ووضعنا كيف أن أهل غزة طوروا الحياة الحضرية ببناء نماذج إغريقية، فاحتاجوا جدراناً لحماية ثروتهم؛ إلا أن غزة شهدت في الفترة الرومانية انحطاطاً إبان صعود حي المايوما.

ودرس جون هيلي (John Healy) في مقالته: City Institutions in North Arabia in the Roman Period (٧٧-٨٤) مؤسسات المدينة في بلاد الشام حضارياً أمثلة من البتراء والحجر (مدائن صالح) وتدمر والرها (اورفا-تركيا)، والحضر ومستشهداً بالنقوش التي جاءت من هذه المدن التاريخية المعروفة، إذ تقدم معلومات هامة حول تنظيم المدينة كالإدارة السياسية والعسكرية والضرائب والمحاكم والأرشفة ومفهوم الولاء القومي.

جيفري كنج (Geoffrey King) في مقالته «An Islamic Trading City: the Port of Jalfar, Ra's Al-Khaima, United Arab Emirates» (٨٥-١٠٤). بين أهمية جلفار والتي هي أصل مدينة رأس الخيمة، كمرفأً تجاري في أدنى الخليج منذ فترة مبكرة بعد ظهور الإسلام، إذ تغيرت مكانتها التاريخية الواضحة في المصادر العربية والأوروبية، وتغير موقعها بالتزامن مع اندثار المسارب المائية فيها. وأفاد بأن هذه المدينة شهدت ازدهاراً لوجود مبانٍ فيها جيدة التنفيذ، ووجود السيراميك المستورد من الصين ومن جنوب شرقي آسيا، وظلت مزدهرة حتى الحقبة الإسلامية المتأخرة حيث كانت مدينة تجارية مهمة ونشطة في التجارة الدولية في المحيط الهندي، وبين كيف حلت رأس الخيمة مكانها، وقد كان ذلك نتيجة عوامل بيئية أفضت إلى جفاف قنواتها الملاحية.

وناقش الباحث موتسو كاواتوكو (Mutsuo Kawatoko)

د.هاني فيصل هياجنة: كلية الآثار والسياحة - جامعة الحسين بن طلال - معان - الأردن.